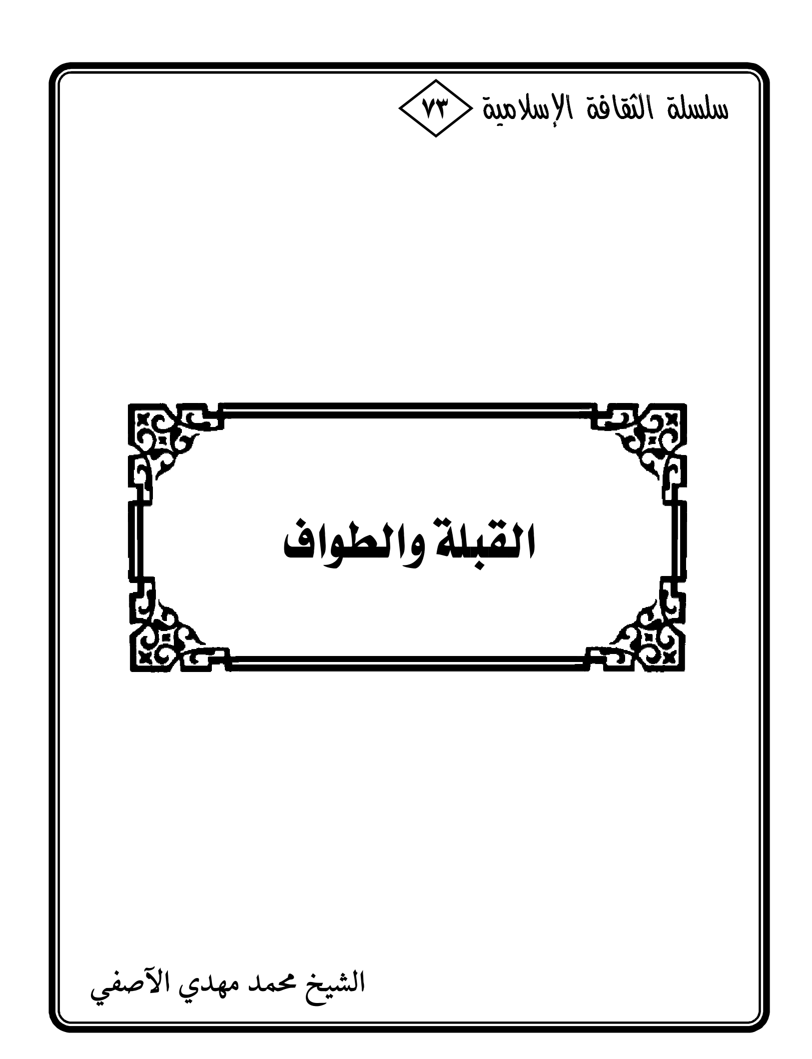


بسم الله الرحمن الرحيم

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات

الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

❊ ❊ ❊

مقال نـشر فـي مجلـة ميقـات الحـج، العـدد الثالث، نعيد نشره هنا تعميما للفائدة.

اسم الكتاب: .... القبلة والطواف

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

تاريخ الطبع: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م

الكمية .... ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

الكعبة

قيمة الكعبة:

شرّف الله (الكعبة) وجعلها مثابةً للناس يثوبون إليها، ويجتمعون حولها، ويجدون عندها الأمن الذي يفتقدونه في حياتهم، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً..﴾[1].

وهي بيت الله شرّفها الله ـ تعالى ـ وخصّها لنفسه، وجعلها مباركةً، وهدًى للعالمين.

وخصّ الله ـ تعالى ـ الناس من بين سائر خلقه ببيته الذي أكرمه وخصّه بنفسه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا..﴾[2].

وجعل الله الكعبة قياماً للناس، تقوّم علاقتهم بالله وحركتهم وكدحهم

1 ـ البقرة: ١٢٥.
2 ـ آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

إليه، وتقوّم معاشهم ومعادهم، ودنياهم وآخرتهم، وتنظّم علاقتهم بالله ـ تعالى ـ وبأنفسهم. ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾[1].

فضل الكعبة:

وقد خصّ الله ـ تعالى ـ الكعبة بفضل عظيم، وخصّ أميرالمؤمنين عليه السلام في فضل الكعبة:

«أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ، الَى الأخرينَ منْ هذَا الْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلاَ تُبْصِرُ وَلاَ تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً.

ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الأَوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ، لاَ يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلاَ حَافِرٌ وَلاَ

1 ـ المائدة: ٩٧.

ظِلْفٌ، فَصَارَ مَثَابَةً لِلْمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ.

تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ (يهلّون) لله حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ.

قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلاَءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ.

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الأَشْجَارِ دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ النُّبَاتِ، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءِ.

وَلَوْ كَانَ الأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ

بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إذا خرجتم حجاجاً إلى بيت الله ـ عزّوجلّ ـ فأكثروا النظر إلى بيت الله، فإنّ لله ـ عزّوجلّ ـ مائة وعشرين رحمة عند بيته الحرام، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين»[2].

وعن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله، قال:

«لله ـ تبارك وتعالى ـ حول الكعبة عشرون ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين»[3].

وعن إسحاق بن عمار، قال أبو عبد الله عليه السلام:

---

١ ـ الخطبة المعروفة بالقاصعة، نهج البلاغة ٢: ١٤٨ خطبة١٩٢.

٢ ـ بحار الأنوار ٩٩: ٢٠٢.

٣ ـ بحار الأنوار ٩٩: ٢٠٢.

«يا إسحاق مَن طاف بهذا البيت طوافاً واحداً كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، أفلا أخبرك بما هو أفضل من هذا؟ قلت: بلى. قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كتب الله له طوافاً وطوافاً حتّى بلغ عشراً»[1].

دروس من الكعبة:

لـ (الكعبة) المشرّفة توجيهان في حياة المسلمين وهما: (القبلة) و(الطواف).

وكلٌّ منهما يرمز إلى معنى يختلف عن المعنى الآخر، وسوف نتحدّث إن شاء الله عن كلٍّ منهما، ونبدأ بالقبلة.

١ ـ بحار الأنوار ٩٩: ٢٠٣.

١ـ القبلة

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[1].

للقبلة دور مزدوج. فهي أولا توجه المسلمين إلى الله في كلّ يوم خمس مرّات على الأقل.

وتوحّد جهة المسلمين بهذا الاتجاه ثانياً.

ولابدّ من بعض التفصيل في هذا وذاك:

الدور الأول للقبلة: تسليم الوجوه إلى الله:

استقبال الكعبة في الصلاة يرمز إلى تسليم الوجوه لله تعالى. وتسليم الوجه لله بمعنى أن يسلّم الإنسان جهة حركته ومساره لله تعالى، ويعطي وجهه لله.

أنحاء التسليم:

والتسلم لله في حياة الإنسان على ثلاثة أنحاء:

١ـ التسليم لقضاء الله وقدره؛ بمعنى أن لا يعترض الإنسان

---

١ ـ البقرة: ١٤٤.

ولا يتذمر لما يقدر الله ـ تعالى ـ له من القضاء والقدر في السرّاء والضراء. وفوق درجة التسليم هذه درجة (الرضا بقضاء الله وقدره) وهو من أسمى مراتب العبودية واليقين.

٢ـ التسليم لدين الله وحكمه وشريعته، بمعنى الطاعة والانقياد والاستسلام لأمر الله وحكمه، والالتزام بحدود الله ـ تعالى ـ بصورة دقيقة، وهو (التقوى). وهذا التسليم يختلف عن التسليم الأول، فإنّ التسليم هنا يتمّ بالانقياد الطوعي والإرادي لحكم الله تعالى وحدوده... بينما التسليم في الفقرة الأولى بمعنى عدم الاعتراض والتذمر من قضاء الله ـ تعالى ـ وقدره والرضا به. أما القضاء والقدر فينزلان على الإنسان بغير إرادته واختياره، ويقهرانه على ذلك، أراد ذلك أو لم يرد.

٣ـ أن يسلّم الإنسان وجهه لله، بمعنى أن يجعل وجه الله ـ تعالى ـ ومرضاته غايته في حركته، ويسعى إليه، ويكون همّه تحقيق مرضاة الله، والتقرّب إليه وابتغاء وجهه الكريم.

وهذا التسليم يختلف عن التسليم في الفقرة الثانية، ففي الفقرة

الثانية يأتي التسليم بمعنى الطاعة، وتجنّب المعصية، والعمل والحركة ضمن حدود الله تعالى، وعدم تعدى الحدود الإلهية والاجتناب عن انتهاك حرمات الله.

بينما التسليم في الفقرة الثالثة مسألة نفسية وذهنية وهي ابتغاء وجه الله ومرضاته.

* * *

والتسليم لله بالمعنى الثالث هو رسالة القبلة، وهو أحد الدورين الذين تنهض بهما (الكعبة) في حياة الإنسان.

قال تعالى: **﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ..﴾**[1].

و**﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ..﴾**[2].

و**﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ..﴾**[3].

١ ـ آل عمران: ٢٠.
٢ ـ البقرة: ١١٢.
٣ ـ النساء: ١٢٥.

و**﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى..﴾**[1].

وكما ليس للإنسان إلاّ قلب واحد **﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾**[2] كذلك ليس للإنسان إلاّ وجه واحد. وهذا الوجه إمّا أن يكون إلى الله، أو إلى جهة أخرى غير جهة الله.

وقد يتمكن الإنسان في وقت واحد أن يقوم بعملين (يمشي ويتكلّم مثلا)، ولكن لا يمكن أن يعطي وجهه في وقت واحد إلى جهتين.

إذن معنى تسليم الوجه هو أن يكون همّ الإنسان، وغايته في حركته ومسعاه هو مرضاة الله تعالى **﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[3].

وتسليم الوجوه لله ـ تعالى ـ بهذا المعنى هو أن يضع الإنسان وجهه قبال وجه الله الكريم، ويعطي وجهه لله. وهو بمعنى الإقبال

١ ـ لقمان: ٢٢.
٢ ـ الأحزاب: ٤.
٣ ـ الأنعام: ١٦٢.

على الله في الحركة والإعراض عن غير الله.

إذن فإنّ (وجه الله الكريم) ينظم مسير الإنسان وحركته، إذا أعطاه الإنسان وجهه وسلّمه ناصيته.

وقد يعبّر القرآن عن هذا المعنى بـ (إقامة الوجه للدين).

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وإقامة الوحدة للدين، بمعنى تسليم الوجوه وتوجيهها لله تعالى، فإنّ مهمة الدين في حياة الإنسان هو توجيه وجه الإنسان إلى الله.

الحالات الثلاث للإنسان:

وتوجيه الوجوه إلى الله هي الحالة الوحيدة للاستقامة على الصراط المستقيم في حياة الإنسان. وهذه الحالة تقع مقابل حالة الإعراض والانحراف عن الله... وهما حالتان مختلفتان في حياة الإنسان.

---

١ ـ يونس: ١٠٥.

فحالات الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى ثلاث:

١ـ حالة الاستقامة على الصراط المستقيم في حياة الإنسان.

٢ـ حالة الإعراض والصدود عن الله وهي حالة (المغضوب عليهم).

٣ـ حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهي حالة (الضالين).

فهذه ثلاث حالات للإنسان بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ تشير إليها سورة الفاتحة.

والحالة الأولى هي الحالة الوحيدة للاستقامة في حياة الإنسان.

وأبعد حالات الإنسان عن الله ـ تعالى ـ هي حالة الإعراض والصدود عن الله، وهي حالة المغضوب عليهم... وفي هذه الحالة يخرج الإنسان عن دائرة رحمة الله الواسعة التي لا تضيق بشيء إلاّ أن يشاء الله، وهي حالة السقوط والهلاك للإنسان... وهذه الحالة تحجب الإنسان عن الله حجباً كاملا، وبين هاتين الحالتين

حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهي حالة الضالين. وهذه الحالة حالة منحرفة عن الله، وليست على الصراط المستقيم، ولكنها لا تحمل إعراضاً وصدوداً عنه تعالى، فهي لذلك تقع في دائرة رجاء رحمته عزّوجلّ.

واستقبال القبلة يرمز إلى هذه الحالة الوحيدة للاستقامة على الصراط المستقيم، وهي الحالة التي يوجه الإنسان وجهه ويسلمه لله ـ تعالى ـ وهذا هو الدور الأوّل للقبلة.

الدور الثاني للقبلة:

والدور الثاني للقبلة أنّها توجّه وجوه الناس جميعاً إلى الله. وهذه الصفة (الاجتماعية) في تسليم الوجوه لله تعطي الإنسان قرباً وسرعةً وإقبالا أكثر في حركته إلى الله.

ومن عجب، أنّ حركة الإنسان إلى الله وسط حركة جماهير المؤمنين إلى الله أسرع وأقوى وأرضى إليه تعالى، من أن يتحرّك الإنسان وحده إلى الله إلاّ أن يكون أمّة لوحده، كما كان إبراهيم عليه السلام أُمّةً.

والله تعالى يحب أن يستقبل عباده مجتمعين، فإذا أقاموا الصلاة، أقاموها جميعاً، وإذا توجهوا إلى وجهه الكريم بوجوههم توجهوا جميعاً، وإذا صاموا صاموا جميعاً، وإذا أفطروا أفطروا جميعاً. وهذه الصفة (الاجتماعية) أمر أصيل وجوهري في هذا الدين. والقبلة تحقّق هذه الصفة الاجتماعية في تسليم الوجوه إلى الله، إضافةً إلى أصل التسليم.

٢ـ الطواف

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1].

والدور الثاني للكعبة أنّ هذه الغاية (وهي مرضاة الله، ووجهه الكريم) تستوعب كلّ جهد الإنسان وهمّه وحركته، وهو ما يرمز إليه (الطواف).

فإنّ (القبلة) توجّه الإنسان إلى الله في صلاته. وهذه مهمّة صعبة وشاقّة. إلاّ أنّ هذه المهمّة ـ في حدود القبلة ـ لا تستوعب كلّ جهد الإنسان وحركته، فإنّ الإنسان يصلّي، ويسعى ويتحرّك في مناكب الأرض ابتغاءً للرزق، ويتزوّج، ويتعلّم، ويعلّم، ويحب، ويبغض، ويذهب إلى السوق، ويعود إلى البيت، وهو لا يطلب في هذه الحركة الواسعة وجه الله، ولا يطلب إلاّ رزقه ولذّته وحاجاته، في غير معصية الله، وليس عليه من بأس في ذلك، إذا كانت هذه الحركة في غير معصية الله. غير أنّ شطراً كبيراً من جهد الإنسان وحركته واهتماماته يقع خارج هذه الجهة

---

١ ـ الحج: ٢٩.

(مرضاة الله ووجه الله) دون أن تعارضه. ولا يستوعب وجهُ الله ومرضاتُه كلَّ همومه وحركته وسعيه. ولا بأس على الإنسان في ذلك، غير أنّ حركته في هذه الحالة إلى الله تكون حركة بطيئة. يتحرّك إلى الله إذا أقبل بوجهه على الله في صلاته، ويتوقّف عن الحركة إلى الله إذا قضى صلاته، وذهب لغيرها من شؤونه في الحياة، كالمجتمعات المسيحية المعاصرة، فانّ التوجه إلى الله في هذه المجتمعات لا يستوعب إلاّ جزءاً يسيراً من شخصية الناس وحركتهم في ساعة أو بضع ساعة من أيام الآحاد في الكنيسة، فإذا قضوا هذه الساعة في الكنيسة، وانصرفوا إلى سائر شؤونهم في الحياة، انصرفوا عن الله إلى غيره من شؤونهم من حلال أو حرام.

وأقل ما في ذلك أنّ حركة الإنسان إلى الله ـ تعالى ـ تكون بطيئة، ومنقطعة، ومثل هذه الحركة البطيئة المتقطعة، لا تكاد أن توصل الإنسان إلى (لقاء الله).

و(الطواف) يعلمنا أنّ من الممكن أن يستوعب (وجهُ الله) و(مرضاةُ الله) كلّ جهد الإنسان وحركته وسعيه في السوق

والبيت والمسجد والمدرسة وساحات الحرب وميادين السلم دون أن يعطّل شيئاً من حركته ونشاطه.

الحالات الثلاث للانسان:

ولابدّ من توضيح وتفسير لهذا الأمر فنقول:

إنّ للإنسان تجاه الله ثلاث حالات:

١ـ حالة الشرك.

٢ـ حالة التوحيد.

٣ـ حالة الإخلاص.

وفيما يلي توضيح لهذه الحالات:

١. الشرك:

وهي أنّ يحكّم الإنسان أكثر من عامل على سلوكه، بمعنى أن يحكّم الله ـ تعالى ـ على نفسه، ويحكّم الهوى والطاغوت في الوقت نفسه على نفسه، فيخضع في سلوكه لهذه العوامل جميعاً وليس لحكم الله ـ تعالى ـ وأمره فقوء فيطيع الله تعالى، ويطيع

الهوى والطاغوت في معصية الله، ويُحِلّ ما أحلّوه له ويحرّم ما حرّموه عليه في مقابل ما أحلّ الله وما حرّم الله.

وهذه الطاعة والانقياد للهوى والطاغوت... تأتي في حياة الإنسان في عرض طاعة الله، وبمعصية الله ومخالفته.

والقرآن يسمّي هذه الطاعة التي تأتي في عرض طاعة الله، وتتمّ بمعصية الله ـ تعالى ـ ومخالفته بـ(الشرك).

فيقول ـ تعالى ـ في طاعة الهوى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾(1).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ..﴾(2).

وطاعة الهوى هو تأليه الهوى، ولا نعرف نحن معنى آخر لتأليه الهوى غير الطاعة والتسليم لعامل الهوى: هذا في طاعة الهوى.

وأمّا في طاعة الطاغوت فيقول تعالى:

﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

---

١ ـ الفرقان: ٤٣.

٢ ـ الجاثية: ٢٣.

مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا﴾[1].

والعبودية هنا الطاعة، فإنّ النصارى لم يزيدوا على طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلّوا لهم وحرّموا عليهم، فعبادتهم لهم هي تحكيم أوامرهم ونواهيهم عليهم.

وقد روي في ذلك أنّ عدي بن حاتم قال لرسول الله ﷺ: إنّا لم نعبد أحبارنا ورهباننا؟ فقال له رسول الله ﷺ: ألم تحلّوا ما أحلّوه، وتحرّموا ما حرّموه؟

٢.التوحيد:

وهو أن يحكّم الإنسان على نفسه حكم الله ـ تعالى ـ فقء ويأخذ بما أحلّ الله ـ تعالى ـ وينتهي عمّا حرّم الله ـ تعالى ـ ولا يحلّل غير ما أحلّ الله، ولا يحرّم غير ما حرّم الله. ويجعل الإنسان كلمة الله هي العليا في حياته، وأمر الله ونهيه هو النافذ على سلوكه، يمتثل ما أمر الله تعالى به وينتهي عمّا نهى الله عنه. وهذا هو (التوحيد) و(التقوى).

---

١ ـ التوبة: ٣١.

ولكن ليس بالضرورة أن يكون كلّ عمله وتحرّكه وسعيه لوجه الله، وابتغاءً لمرضاة الله، فليس ممّا يضر بـ(التوحيد) أن يذهب الإنسان إلى السوق ابتغاءً للرزق، لا ابتغاءً لوجه الله ومرضاته، وإنّما يضرّ بالتوحيد أن يجعل عامل الرزق حاكماً على سلوكه في عرض حاكمية الله، ويأخذ بما يتطلّبه الرزق محلّلا له، وإن كان في ذلك معصية الله ومخالفته.

والخلاصة: أنّ (التوحيد) هو قبول الإنسان سيادةَ الله ـ تعالى ـ وولايتَه المطلقة على حياته. و(التقوى) هو تحكيم سيادة شريعة الله وحدها على سلوكه. فلا يرتكب الإنسان ما ينهى الله عنه، ولا يترك عمّا يأمر الله تعالى به، وليس من الضروري في (التوحيد) و(التقوى) أن يكون سلوك الإنسان كلّه ـ حتّى في دائرة المباح ـ لوجه الله وابتغاء مرضاته.

٣.الإخلاص:

وهو فوق مرتبة التوحيد، وتتحقّق هذه الحالة عندما يمحّض الإنسان نفسه وحياته، وسلوكه كلّه لله، وابتغاءً لمرضاته ووجهه،

وتستوعب مرضاةُ الله كلَّ حركته ونشاطه وسلوكه، وتصبغ هذه الغاية (مرضاة الله) كلَّ سلوكه ونشاطه وحركته، أولئك المخلَصون. والإخلاص بهذا المعنى هو الدعوة الثانية للأنبياء بعد دعوة (التوحيد).

والإخلاص ليس بمعنى أنّ يعطّل الإنسان نشاطه وسعيه في مناكب الحياة، في السوق والبيت والمزرعة وساحات الحرب والإدارة والسياسة، ولكن بمعنى أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته في هذه الساحات كلّها لله تعالى.

ومن السهل أن يعطّل الإنسان شطراً كبيراً من نشاطاته وسعيه، لئلاّ يكون سعيه وحركته لغير الله، ولكن من الصعب أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته كلّها لله تعالى. ودعوة الإسلام هو أن يطوّع الإنسان حركته وسعيه لله، وليس أن يعطّل الإنسان نشاطه وحركته.

وهذان منهجان في التربية الروحية: التعطيل والتطوّع.

والأوّل منهج سلبي يرفضه الإسلام، والثاني منهج ايجابي يدعو إليه الإسلام.

والطواف يرمز إلى هذا الشأن الصعب في علاقة الإنسان بالله تعالى. ففي الطواف يطوف الإنسان دورة كاملة حول الكعبة، في هذه الدورة يتحرّك كتفه الأيمن حول محيط دائرة كاملة من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال وفيما بين هذه الجهات جميعاً، ولا تبقى نقطة على هذا المحيط الدائري الشامل إلاّ ويقطعه الإنسان بكتفه الأيمن. وهذا المحيط يساوي ٣٦٠° ولا نعرف جهة هندسية أوسع وأشمل من ٣٦٠° (أي محيط الدائرة).

وبينما يتحرّك كتف الإنسان الأيمن حول هذه الدائرة الشاملة يثبت كتفه الأيسر على مركز الدائرة وهو الكعبة، ولا يحيد عنه، في كلّ هذه الحركة الدائرية.

ولهذا التركيز والتثبيت إلى جانب تلك الحركة الشاملة معنى عميق في حياة الإنسان المسلم. فإنّ من الممكن أن يقوم الإنسان بكامل النشاط المباح، الذي يقوم به سائر الناس في مناكب الحياة المختلفة، دون أن ينحرف حتّى لحظة واحدة عن ابتغاء وجه الله ومرضاته في شيء من ذلك. فيذهب إلى السوق لله،

ويسعى في مناكب الحياة لله، ويتزوّج لله، ويؤمّن معيشة أهله لله، ويعمل في ميادين السياسة لله، ويقاتل لله، ويدافع لله. وإذا أحبّ أحبّ لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا سُرّ سُرّ لله، وإذا غضب غضب لله.

فلا تفوت الإنسان في هذه الحركة الواسعة حركة ولا نشاط ممّا ينشط له الناس في مساحة المباح، ولا ينحرف الإنسان في جزء من هذا النشاط الواسع عن ابتغاء وجه الله ومرضاته، وعندئذ يكون مخلَصاً لله، أي خالصاً، لا يشوب نفسه ونيّته شيء لغير الله.

يقول تعالى عن رسوله وكليمه موسى بن عمران: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّه الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ

١ ـ مريم: ٥١.
٢ ـ الصافات: ٣٩ ـ ٤٠.

الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

و(المخلَص والمخلَصين) في هذه الآيات بفتح اللام بمعنى الخالص، الذي خلصت نفسه ونيّته من كلّ شائبة لغير الله تعالى.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

عن الإمام الصادق عليه السلام، والراوي سفيان بن عُيينَة، قال: سألته عن قول الله (إلاّ مَن أتى اللهَ بقلب سليم) قال: «القلبُ السليم الذي يلقى ربَّه وليس فيه أحدٌ سواه. قال: وكلُّ قلب فيه شركٌ أو شك فهو ساقط. وإنّما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغَ قلوبهم للآخرة»[3].

وإذا أخلص الإنسان نفسه لله، وكان كلّ سعيه وحركته ونشاطه لله، فانّ كلّ شيء في حياته يقربه إلى الله ـ تعالى ـ.. ذلك انّه مقبل بوجهه إلى الله، كادح للقاء الله كدحاً في كلّ عمل وحركة ونشاء ولا يتوقّف عن الكدح والحركة والإقبال على الله

١ ـ الصافات: ٧٤.
٢ ـ الشعراء: ٨٩.
٣ ـ أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح ٥.

فـي سـعي أو عمـل، مهمـا كـان نـوع هـذا الـسعي والعمـل، فـي ساحات السياسة أو القتال، وفي السراء أو الضراء، وفي السوق أو البيت أو المسجد... كلّ ذلك يقربه إلى الله. ويكون مع الـصادقين في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

* * *

وقبـل أن ننهـي هـذا الـدرس عـن (الطـواف) نـضيف إلـى خصائص الطـواف خـصلة أخـرى وهـي الـصفة الاجتماعيـة فـي الطـواف، إنّ الله تعـالى يحـبّ أن يقبـل عبـاده إليـه مجتمعـين، ويكدحون ويتحرّكون إلى وجهه الكـريم فـي صـفوف متراصـة، وحشود بشرية كبيرة من المؤمنين.

وهذه الخصلة الاجتماعيـة فـي الحركـة إلـى الله تعطـي لهـذه الحركة سرعة وقوّة ومتانة واستحكاماً أكثر. وشـتّان بـين أن يعبـد الإنـسان لوحـده الله ـ تعـالى ـ أو يعبـده فـي وسـط حـشد مـن المؤمنين، فإنّ العبادة الثانية أرضى وأقرب إلى الله تعالى، وأسـرع إلى القبول ونيل مرضاة الله من الأولى.

وفي الطواف نجد هـذه الخـصلة الاجتماعيـة بوضـوح. حيـث يدعو الله ـ تعالى ـ المؤمنين لطواف هذا البيت في أيام معـدودات معلومـات مـن الـسنة، فيتـزاحم المؤمنـون حـول البيـت العتيـق، ويتدافعون بطبيعة الحال ويخلصون إلى الله في وسط هذا التـدافع والتزاحم. وهو درس عجيب من دروس الطواف.

فـإنّ العبـادة وابتغـاء مرضـاة الله فـي وسـط حـشود المـؤمنين يـستتبع بطبيعـة الحـال، مثـل هـذا التـدافع والتـزاحم، والتنـافس، وأحياناً التنافس السلبي، ومع ذلك كلّـه فـإنّ الله ـ تعـالى ـ يـدعونا إلى أن نسلك الطريق إليه وسط حشود المؤمنين مع هـذا التـزاحم والتنافس، ويدعونا إلى التسامح والتساهل والترفّع عـن المـشاكل التي تحدث فيما بين المؤمنين أنفسهم. ولابدّ مِن أن يحدث مثـل ذلك، ولابدّ من الترفّع عنها، والتساهل فيها.

روى داود بـن سـرحان قـال: سـمعت أبـا عبـد الله عليه السلام يقـول: «**أربع لا يخلو منهنّ المؤمن أو واحدة مـنهنّ، مـؤمن يحـسده، وهو أشدُّهن عليه، ومنـافق يقفـو أثـره، أو عـدو يجاهـده، أو**

شيطان يغويه»[1].

وللطواف في نفوسنا مشهدان:

مشهد الطواف من الداخل، ومشهد الطواف من الخارج، ومشهد الطواف في كلّ منهما يختلف عن الآخر.

فإذا أشرفنا على الطواف من الأعلى من سطح البيت الحرام، وجدنا هذا الجمهور الحاشد يدور حول البيت في حركة هادئة مريحة متّصلة مستمرّة، وكأنّ أرض المسجد الحرام تدور بهم في حركة وديعة هادئة. وهذا هو مشهد (الطواف) من الخارج، وقراءة لحركة (التوحيد) و(الإخلاص) في التاريخ من بعيد، من أعمال التاريخ.

وللطواف مشهدٌ آخر، وقراءة أخرى من الداخل، عندما ندخل في زحمة الطواف، ويعصرنا الطائفون، ونشقّ الطريق حول بيت الله الحرام في زحمة الطائفين ومنافستهم، وأحياناً مضايقاتهم ومشاكساتهم. وهذا مشهد الطواف من الداخل،

---

١ ـ الكافي ٢: ٢٥٠ ح٤.

وكذلك قراءة من الداخل لحركة التوحيد و(الإخلاص).

فلا تكاد تخلص حركة (التوحيد) و(الإخلاص) لله ـ تعالى ـ في حياتنا، في صفوف المؤمنين الموحدين والمخلَصين من هذا التزاحم والتنافس الايجابي، والسلبي أحياناً. ومع ذلك فإنّ الله ـ تعالى ـ يريد منّا أن نحمل عب رسالة (التوحيد) و(الإخلاص) في الحياة في وسط جمهور المؤمنين، وحشود الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ ويطلب منّا أن نتقبل نتائج هذا التزاحم والتنافس في العمل كأمر واقع لابدّ من أن يقف ويدعونا إلى التساهل والتسامح في هذا الأمر، وإلى الترفّع عنه ما أمكن.

وهذا هو الدرس الثاني من دروس الطواف.

الفهرس